الفصل الثالث

سلوكه ومجاهداته

سنحاول هنا ـ مع قلة ما لدينا من المصادر والمادة التي يمكن الإستعانة بها ـ أن نقوم بوضع صورة واضحة قدر الإمكان من حياة شيخنا السلوكية ، ذلك أن كل المصادر التي حدثتنا عنه قد اكتفت بذكر اسمه ، وأسماء بعض من روى عنهم أو رووا عنه ، وذكر نفيه من ترمذ إلى بلخ ، ورحلته إلى نيسابور وتحديثه فيها ، ثم سردوا مقتطفات مروية من أقواله ، دون أن يلتفتوا إلى إعطائنا نبذة عن أحواله أو أطواره في بداياته أو في نهاياته ، إلا نبذا قليلة ، لا تروى غلة ولا تنقع ظمأ ، وردت في كتاب « تذكرة الأولياء» وهي على قلتها لا يمكن الركون إليها أو التعويل عليها ، حيث لم تذكر في المصادر القديمة[1] ، لكنها لا تخلو من قيمة في إعطاء القارئ فكرة عامة ، ولعل كاتبها اعتمد على مصادر لم تصل إلينا .

وليس لدينا بعد ذلك ما نعتمد عليه إلا تلك الترجمة الذاتية الوجيزة التي تركها لنا الحكيم الترمذي عن نفسه ، ومن هنا ـ كما هو من نواح أخرى ـ تبدو قيمتها البالغة ، إذ لولاها لما أمكننا أن نعرف شيئًا في هذه الناحية من حياته الشخصية ، ولتركنا موضع هذا البحث خاليًا دون مساس ، لكننا بالاعتماد عليها والرجوع إليها مع مقارنتها ببعض الملابسات التي عرفناها من مصادر أخرى أمكننا أن نقسم حياته إلى المراحل التي ذكرناها سابقًا ، وأن نعرف شيئًا من حياته السلوكية نحاول أن نضعه في صورة مناسبة في هذا الموضع من البحث ، وهو وإن كان لا يسير بنا إلى نهاية المطاف فإنه

---

(١) الدكتور نقولاهير : مقدمته لكتاب «بيان الفرق» ص ٧ .

ـ على الأقل ـ يضع أقدامنا على بداية الطريق ، ويدلنا على مراحل في هذا الطريق الذي قطعه هو على امتداده ، وهذا كاف لنا في هذا المجال ريثما يسفر البحث عن مصادر أوسع وأشمل يمكن عن طريقها الإحاطة بهذه الناحية من حياته .

لقد لاحظنا من قبل أن الحكيم الترمذي نشأ في بيت علم ، فأبوه علي ابن الحسن بن هارون الترمذي المحدث الذي حدث ببغداد ، وهذا يدلنا على أن النشأة العلمية التي نُشِّئَها الحكيم الترمذي كانت امتدادًا لجهود أبيه من قبله ، ولعل ذلك كان ذا تأثير عليه في إقباله على الدراسة ، وتفرغه لها ، وإعراضه عن الملعب منذ حداثته .

لكن هنالك أثرًا أهم من ذلك ، صادف لدى الحكيم استعدادًا ، فظل ينمو وينمو ، حتى ظهر أخيرًا في تحوله الصوفي ، هذا الأثر هو ما لاحظه الترمذي نفسه في تفريقه بين أهل الرأي وأهل الحديث من حيث الأخلاق والسلوك ، فأهل الحديث ألين قلوبًا وأرق أفئدة ، لكثرة تردد الآداب النبوية والأحاديث الشريفة على أسماعهم ، فخلصت إلى النفوس منهم ، شاءت أو أبت ، فذللتها وقمعتها ، حتى رؤى أثر ذلك وبركته عليهم[1]. فلين القلب ، ورقة الفؤاد ، وخشوع النفس ، وخضوع الجوارح من المميزات التي امتاز بها أهل الحديث على وجه العموم ، وهي ـ في نفس الوقت ـ من الاستعدادات التي تهيئ المرء للسلوك الصوفي ، ولقد كان أبوه من المحدثين ، فلا غرو أن تنطبع هذه الصفات في نفس ولده فتؤثر فيه ، وتجعله بدوره على استعداد كاف للسلوك الصوفي عندما تظهر دواعيه وتتهيأ أسبابه .

ولقد ظل الحكيم منذ نعومة أظفاره يدرس علم الآثار وعلم الرأي ، وهذان العلمان من أسنى العلوم التي كانت تطلب في عصره ، بحيث يكفي الواحد منهما لنسبة صاحبه إلى سؤدد العلم وشرفه ، فهل وجد الحكيم فيهما كفايته؟!

---

(١) المسائل المكنونة ص ٣ ب - ٥ أ ، وص ٣٠ أ - ٣١ من مخطوطة ولي الدين .

لم يكن الحكيم ممن تكفيه هذه المطالب ، بل لعله كان لا يجد فيهما المنهج الكامل الذي كان يتشوف إليه بشوق غالب ، ونفس طلعة لا تهدأ ولا تستقر ، وظل شعوره بهذا النقص كامنًا في أعماق نفسه ، يوجهه من حيث لا يدري وجهة أخرى لم يكن يفكر فيها ولا يلتفت إليها ، بل كان ما يتميز به كل منهما عن الآخر من حيث جفاف الرأي بالنسبة لعلم الآثار عاملاً من عوامل الصراع الخفي في نفس شيخنا الترمذي ، ولم يجد هذا الشعور وسيلة إلى الظهور والتعبير عن نفسه إلا بعد أن بلغ الشيخ السابعة والعشرين من عمره ، وألقى عليه حرص الخروج إلى بيت الله الحرام .

لقد كان الحكيم طيلة هذه الفترة يبحث فيما يدرسه عما يشبع حاجة قلبه ، بل يبحث في الحقيقة عن قلبه في ثنايا ما يدرسه فلا يكاد يجده ، إذ ما هو المقصد الحقيقي من هذه الدراسات ؟ إن كان هو الشرف والسؤدد ؟ فهو أمر ظاهري لا يصيب قلب الإنسان ، وإن كان هو تكوين الضمير المسلم والقلب المؤمن؟ فذلك ما قد ظل يفتقده طيلة مدة دراسته هذه ، حتى أحس أن ما يقوم به بالطريقة التي يتبعها ليس من الطاعة المطلوبة في شيء ، بل من الأمور التي يجب التوبة عنها ، والخروج منها ، إنها تزيد من رغبته في الدنيا ، ومن حبه لجاهها وزينتها ، بل إنها تكاد ـ من زيفها ـ تصرفه حتى عن حفظ القرآن ، وهو الأساس المتين لها ، ولعلنا نلاحظ هنا أن مثل هذا المشهد قد تكرر من بعد عند الغزالي في القرن الخامس الهجري[1] .

كل هذه الأشياء كانت تعتلج في نفس الحكيم دون أن تجد لها متنفسًا ، وظل على منهجه العلمي الذي كان يسير عليه دون أي تغيير ، حتى أثناء طريقه إلى الحج ، مما جعله يتوقف في العراق طالبًا الحديث ، كما هو غاية المحدثين في رحلاتهم ، فلما وصل إلى رحاب البيت الحرام وجد في ساحته متسعًا من الوقت ، وصفوًا من الزمن ، يعود فيه إلى نفسه ليكتنه

---

(١) انظر «المنقذ من الضلال» للغزالي .

أسرارها ويسبر أغوارها ، فتنفست كل هذه الانفعالات ، وبرزت من أعماق شعوره ، حتى ملكت عليه حسه وشعوره ، بل ملكت عليه لسانه ، فلم يهتد لشيء من الحاجات غيرها . يقول الحكيم : حتى إذا قارب سني سبعًا وعشرين أو نحوه ، وقع عليَّ حرص الخروج إلى بيت الله الحرام ، فتهيأ لي الخروج ، فوقفت بالعراق طالبًا للحديث ، وخرجت إلى البصرة ، فخرجت منها إلى مكة في رجب ، فقدمت مكة في بقية شعبان ، فرزق الله المقام بها إلى وقت الحج ، وفتح لي باب الدعاء عند الملتزم في كل ليلة سحرًا ، ووقع على قلبي تصحيح التوبة ، والخروج مما دق وجل ، وحججت ، فرجعت وقد أصبت قلبي ، وسألته عند الملتزم في تلك الأوقات أن يصلحني ، ويزهدني في الدنيا ، ويرزقني حفظ كتابه ، وكنت لا أهتدي لشيء من الحاجات غير هذا»[1].

من هذا النص القصير نستطيع أن نرى كيف كان شعوره إزاء حياته السابقة ومنهجه فيها ، إنه لم يكن راضيًا عنها بحال ، لأنه إذا كان التفرغ للعلم ودراسته كافيًا لإشباع بعض الرغبات إشباعًا جزئيًا ، فإنه وحده غير كاف لإشباع كل عواطفه بما فيها من حرارة دينية عميقة ، فهذا العلم ـ وإن كان علم الدين ـ لا يمس الروح كما يمس العقل ، ولا يخاطب الوجدان كما يخاطب الحواس ، فهو إن أشبع حاجة عقلية لم يكد يتجاوزها إلى ما في أعماق القلب من مشاعر وعواطف ووجدان ، على أن ذلك لا يعني أنه مقطوع الصلة بالقلب وما فيه ، بل هو الذي ينبهه من غفلته ، ويوقظه من غفوته ، ويهديه إلى طريقته وسنته ، ولكنه لا يستطيع أن يحمله إلى أبعد من ذلك لكي يصل به إلى أقصى قصده وغايته ، فللإنسان بما هو إنسان تطلعات وجدانية أوسع وأعمق وأبعد من أن تتمركز على بعض المظاهر المتغيرة في هذه الحياة ، لأنها بتغيرها وعدم ثباتها لا تكفيها ، بجوار تطلعاته إلى المعرفة التي تجاوز حدود هذه الحياة ، إلى رب هذه الحياة ،

---

(١) بدء شأن أبي عبد الله ص ١٤ .

إلى الله[1] ، والعلوم التي كان يدرسها الحكيم الترمذي لم تكن كافية لإشباع هذه التطلعات التي كانت كامنة في أعماقه تترقب الفرصة المناسبة لإثبات وجودها ، وفرض نشاطها وفاعليتها ، وإذا لم يكن في هذه العلوم ما يكفي لذلك ، فإلى أين يلجأ ؟؟ ومن أين يحصل على ما يستقر به قلبه ، ويهدأ به فؤاده ولبه ؟؟ وشواغل هذه الدنيا تلهيه ، ودراسته تستغرقه وتقصيه ، إنه كلما أراد أن يتخلص من أشراكها عجز ، وكلما حاول الابتعاد عن مغرياتها عاد وانتكس ، فلم يكن بد له وهو في الحرم من أن يلجأ إلى ربه في تصحيح توبته حتى لا يعود فيها ، والخروج مما دق وجل حتى لا يلهيه ، وإصلاحه حتى يستطيع استئناف حياته على نهج جديد لغاية جديدة ، وحفظ كتابه لأنه هو الأصل الذي يمكن به إشباع كل هذه التطلعات ، تطلعاته الوجدانية نحو الله ، وتطلعاته نحو معرفة الله ، وهل بعد ذلك زيادة لمستزيد؟! إنه لا غرو لم يكن يهتدي لشيء من الحاجات يطلبه غير هذا .

وكان فعلاً أن بدأ حفظ القرآن ، حتى لقد حفظ صدرًا منه في طريق عودته ، وبدأ بذلك التغيير الكامل ، والتحول الشامل في حياته وسلوكه لكي يجمع إلى علم الظاهر علم الباطن ، وإلى علم الشريعة علم الحقيقة .

هذا التحول ـ الذي اصطلح على تسميته بالتوبة الصوفية ، وإن بدأ لدى شيخنا فجأة أثناء مقامه بمكة ـ لم يكن دون مقدمات وانفعالات ظلت تعمل عملها في يسر ورفق تحت غطاء رقيق من الهدوء والصمت ، لكنها كانت ولا ريب قوية بحيث استطاعت حين واتت الفرصة أن تسيطر سيطرة كاملة على كافة نواحيه الشعورية الظاهرة والباطنة ، ولم يكن هذا التحول عنيفًا ـ كما جرت به العادة لدى كثير من الصوفيين ـ بمواجهة صدمة نفسية عميقة ، أو نكسة اجتماعية خطيرة يحتدم عندها الصراع بين الشعور الباطني الذي كان كامنًا لا يتحرك والشعور الظاهري الذي كان مسيطرًا غلابًا ، ويظل الإنسان في حيرة شديدة يقاسي منها الكثير ولا يعرف إلى أي اتجاه يسير ، حتى ينتهي الصراع بتغلب أحد الجانبين ، وعودة التوازن النفسي إليه .

---

(١) راجع في مثل ذلك كتاب التصوف لأندرهل ص ٤٥ Underhill: MysticismP.45.

ولقد حدث مثل ذلك للغزالي ، حيث لم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبًا من ستة أشهر ، حتى اعتقل لسانه ، وأورثه ذلك حزنًا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، حتى قطع أطباؤه طمعهم من العلاج ، وظل على هذه الحال حتى سهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ، كما ذكر في منقذه ، فاستقر وهدأ وعاد إليه توازنه النفسي .

لكن شيخنا لم يعان مثل هذا التحول العنيف ، بل انتقل في سهولة ويسر من حال إلى حال ومن اتجاه إلى اتجاه ، دون أن يحتدم الصراع النفسي لديه إلى مثل هذه الغاية ، مما يدل على أن هذا الصراع لم يكن فجائيًا ، ولكنه كان يعتمل في نفسه لزمن طويل حتى استطاع حين واتت الفرصة أن ينتقل ويتحول به فجأة ، ولكن دون عنف أو اضطراب ، فاتجه إلى طريق آخر ، هو طريق التصوف الذي استفاد فيه استفادة كبيرة بما كان قد حصله من قبل من علوم الآثار والرأي فكان له خير معين في حياته الجديدة وسلوكه الجديد .

ولقد اندفع الحكيم في طريقه الجديد اندفاعًا قويًا لا هوادة فيه ، واستغرق استغراقًا كليًا شغله تمامًا عما كان فيه من قبل ، وبصورة لا يكاد يكون له فيها اختيار ، لأنه لم يكن يدرك لهذا الاندفاع غاية ، ولا يعرف له نهاية ، وإذا كان قد بدأ بحفظ القرآن الكريم ، فإنه لم يكن يتوقف هنيهة ليلتفت إلى ما كان يزاوله من قبل من نشاط في طلب الحديث وروايته ، وفي تحصيل علم الرأي والاجتهاد فيه ، حتى أتم حفظ القرآن بعد عودته إلى وطنه ، وقد وجد في قراءة القرآن ما افتقده من قبل : سكينة قلبه وهدوء نفسه ، فكان لا يمل من قراءته حتى أثناء الميل وحتى إنه ليقيمه إلى الصباح ، ويعلق الحكيم على ذلك بلفظة ذات دلالة خاصة إذا قورنت بما رأيناه من عدم رضاه أو اكتفائه بدراساته السابقة ، يقول الحكيم : ووجدت حلاوته ، فهو هنا يتذوق ما يقرؤه ، ويجد له في ذوقه حلاوة لم يكن يجدها من قبل ، حين كان يدرس العلم تلك الدراسة العقلية الجافة .

لقد تغير ـ إذن ـ مركز الاهتمام ، وانتقل انتقالاً كليًا ، فلم يعد تهمه المعرفة العقلية ، لأنه قد حصل منها ما كان كافيًا لمثله ، ولكن الذي أصبح يهمه الآن ما هو مستكن وراء هذه المعرفة مما لا يدرك إلا بالذوق ، ومما يشبع كلتا العاطفتين : عاطفته الجياشة نحو الله ، ونحو معرفته ، لذلك أخذ في تتبع محامد الرب تبارك اسمه ، والتقاط محاسن الكلام عن طريق العظات ، ومما يستعان به على أمر الآخرة ، لكي تشبع هذه العاطفة الجياشة التي ظهرت واندفعت لديه في قوة وثبات .

لكن هذه النقلة السريعة التي لم يكن يستعد لها جعلته يحس بما يشبه الحيرة ، فقد انقطع في هذا الطور الجديد عن مألوفه ، واتجه اتجاهًا لا معرفة له به ، وترك غاية كانت واضحة بينة ، إلى غاية لا يدركها ، ولم يتضح له منها شيء بعد ، فهو ينظر ليرى ما أمامه فلا يدركه ، ولا يعرف كيف يتوافق معه ، لذلك جعل يبحث عمن يرشده في هذا الطريق ، أو يعظه بما يعينه ويقويه ، فلا يجد .

ولم تصرفه هذه الحيرة عما هو فيه ، بل زادته تشبثًا واستمساكًا به ، لأن عمق الحب الذي جعله يندفع إلى تتبع محامد الرب ظل كما هو مسيطرًا عليه ، يدفعه إلى الثبات والتغلب على هذه الحيرة التي وقع فيها ، حتى أصبح كالمسير المستسلم لما يراد له ، دون أن يعرف ماذا يراد له ، ولم يكن له ملجأ ـ حينئذ ـ إلا الإقبال على نواحي العبادة من الصوم والصلاة ، لكن الحال ظل هو الحال ، لأنه لم يكن قد عرف من قبل غير ما كان يدرسه في علم الآثار والرأي ، وهو ذو منهج يختلف عن المنهج الذي ينبغي اتباعه في مثل حاله الجديدة ، ولم يكن لديه من معرفته شيء ، فأقبل عليه ولم يعرف منهجه أو أسلوبه أو طريقته بعد .

ولعله مما يثير الدهشة حقًا أن يظل مثل الحكيم الترمذي ـ وهو الذي بدأ دراسته مبكرًا ، مع ما هو عليه من ألمعية وذكاء ـ لا يعرف شيئًا من

أحاديث الصوفية وأقوالهم ، حتى يجد نفسه متجهًا قسرًا إلى مثل حياتهم ، وليس عنده رصيد من المعرفة يوجهه أو يعينه على ما هو مقبل عليه .

ويظل كذلك ، إلى أن يقع في مسامعه كلام أهل المعرفة ، ويقع في يده كتاب من كتبهم ، يذكره باسم « كتاب الأنطاكي » فيهتدي عن طريقه إلى شيء من رياضة النفس ، يقول الحكيم[1] : فأخذت أتتبع من الكتب محامد الرب تبارك اسمه ، والتقاط محاسن الكلام من طريق العظات ، ومما يستعان به على أمر الآخرة ، وأسترشد في البلاد فلا أجد من يرشدني الطريق ، أو يعظني بشيء أتقوى به ، وأنا كالمتحير ، لا أدري أي شيء يراد لي ، إلا أني أخذت في الصوم والصلاة ، فلم أزل كذلك حتى وقع في مسامعي كلام أهل المعرفة ، ووقع إليَّ كتاب الأنطاكي ، فنظرت فيه ، فاهتديت لشيء من رياضة النفس ، فأخذت فيها فأعانني الله .

هذا الكتاب الذي يذكره الحكيم ، ويعزوه إلى الأنطاكي ، هو في الحقيقة الشيخ الذي كان له أكبر الأثر في حياة الحكيم الصوفية ، فمن هذا الأنطاكي الذي يقصده الحكيم ؟؟ تذكر كتب التراجم بهذا اللقب : أحمد بن عاصم الأنطاكي ، وعبد الله بن خبيق الأنطاكي ، ويذكر الكلاباذي في كتابه التعرف أبا محمد عبد الله بن محمد مع أحمد بن عاصم ، ويلقبهما معًا : الأنطاكيان ، ولكنه بمقارنة النصوص التي أوردتها هذه الكتب ، خاصة ما ورد في كتاب « حلية الأولياء » منسوبة إلى أحمد بن عاصم الأنطاكي ، وجدنا أنها تكاد تنطق في كثير من أوجه الشبه والمطابقة مع ما ورد في كتب الحكيم ـ بأنه هو الأنطاكي المقصود ، ويذكره السلمي في طبقاته[2] بأنه من أقران بشر ابن الحارث ، والسري السقطي ، والحارث المحاسبي ، وأنه يقال إنه رأى الفضيل بن عياض ، كما يروي القشيري في رسالته[3] أن أبا سليمان الداراني كان يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته .

---

(١) بدء شأن أبي عبد الله ص ١٥ . (٢) ص ١٣٧. (٣) ص١٩ .

وسواء كان هذا الأنطاكي أو ذاك ، فإن الحكيم الترمذي قد اهتدى بعد النظر في كتابه ـ كما يقول ـ لشيء من رياضة النفس ، فأخذ فيها ، وأعانه الله عليها ، ولم يذكر لنا الحكيم من أنواع رياضاته ـ بعد ما ذكره من قبل إدامة قراءة القرآن والقيام بها ليلاً والإقبال على الصوم والصلاة ـ إلا بعض الرياضات السلبية ، مثل تجنب الشهوات ، والتزام العزلة والخلوات .

أما تجنب الشهوات فقد بالغ فيها مبالغة ترجع ـ على ما يبدو ـ إلى أنه لم يكن يقنع منها بناحيتها السلبية دون أن يجد لذلك أثرًا إيجابيًّا ، يشعر به شعورًا واضحًا ، كأنه العلامة بعد العلامة على قلبه ، لذلك سار في هذه الناحية من الرياضة إلى أقصى ما يمكن تصوره في باب الورع ، حتى امتنع عن شرب ماء الأنهار ، خشية أن يكون قد جرى في موضع بغير حق ، يقول الحكيم[1] : « وألهمت منع الشهوات نفسي ، حتى صرت كأني أعلم على قلبي الشيء بعد الشيء ، حتى ربما كنت أمنع نفسي الماء البارد ، وأتورع عن شرب ماء الأنهار ، فأقول : لعل هذا الماء جرى في موضع بغير حق ، فكنت أشرب من البير ، أو من الوادي الكبير » ولا شك أن هذه المغالاة إنما كانت تحدث منه في أوقات استغراقه ، ووقوعه تحت سيطرة العاطفة الغلابة ، التي تقهره على التورع والمبالغة فيه ، لكي يتحقق منه وله ما كان طلبه أثناء إقامته بمكة .

أما التزام العزلة والخلوات ، فقد كان يخلو بمنزله مرة ، أو يخرج إلى الصحراء أخرى ، أو يطوف بالخربات ومقابر الأموات ثالثة ، وإذا كانت هذه العزلة والخلوة قد حُبِّبَت إليه ، وأصبحت من مظاهر رياضته النفسية ، فإنه لم يمتنع امتناعًا كليًّا عن الاختلاط بالأصحاب ، إلا لفقدانه منهم أصحاب الصدق الذين يعينونه على ما هو فيه ، وذلك لأنه قد أصبح مركز الحس والوجدان على هذا الاتجاه ، بحيث لا يمكن له أن يلتفت إلى غيره ، وكل ما يشغله أو يصرف انتباهه عنه ، أو يقطع استغراقه فيه يصبح كريهًا ثقيلاً

---

(١) بدء شأن أبي عبد الله ص ١٥ .

غير محتمل ، وفي مثل هذه الحال لا يمكن له أن يختلط إلا بمن يكون له نفس الاتجاه ، المشتغل بنفس ما يشغله ، حتى يجد فيه عونًا على طريقه ، فإذا لم يجد كان النفور من الناس والاختلاط بهم شعورًا طبيعيًا وكان اللجوء إلى العزلة والخلوة إجراء طبيعيًا أيضًا ، يعتصم بها عما يقطع عليه سعيه وجده واجتهاده ، وقد بين هو نفسه هذا المعنى في رسالته إلى محمد ابن الفضل التي ذكرنا نصًا منها فيما سبق[1].

على أنه ينبغي أن لا نأخذ هذا العكوف على الخلوة والعزلة من مظهرها الخارجي فحسب ونصفها بالسلبية المطلقة ، لأنه في الوقت الذي يبدو فيه هادئًا بعيدًا عن كل نشاط ظاهر ، عقلي أو ذهني أو حتى عضلي ، يكون نشاطه الباطني في أشد درجاته فاعلية وإيجابية ، بحيث تكون له السيطرة الكاملة على كل ملكاته ، بل وعلى حواسه ، فهو يوقف نشاطه الظاهري ليعطي المجال لنشاطه الباطني ، وما يزال مستغرقا في تجربته إلى أن تتمكن عاطفته الباطنة من السيطرة على مشاعره الظاهرة ، وتنفتح عين بصيرته ، فتجلو له من شؤونه ما لم يكن يراه بعين بصره ، وتنشط هذه الحاسة التي يسميها بعض الباحثين « الحاسة الكونية » للاتجاه به إلى خالقها ، وتنطلق إرادته الروحية قوية ثابتة ، لتسلك به طريق الصفاء الروحي ، ويكون حينئذ قد بدأ يسير في طريقه نحو إشباع هذه العاطفة الإنسانية الكمينة المتجهة بأشواقها الغلابة نحو الله ، ونحو معرفته .

لا يمكن إذن أن يدعي على مثل هذه العزلة أنها عمل من أعمال البطالة ، مغلفة تحت غلاف ديني ، لأنها ـ على النقيض من ذلك تمامًا ـ أشق معاناة ، وأصعب مراسًا من الأعمال الأخرى ، أو العبادات الدينية الظاهرة ، التي يستعان عليها بالاندماج بين الجماعات من أخوة الدين ، وقد أدرك الحكيم ذلك ، ولم يجد من يعينه على حاله ، فاعتصم بالخربات والخلوات ، يعاني فيها وحيدًا جهده الصامت العنيف ـ يقول الحكيم : ووقع عليَّ حب الخلوة

---

(١) تحت عنوان « اضطهاده » في نهاية الفصل السابق .

في المنـزل ، والخـروج إلى الصـحراء ، فكنـت أطـوف في تلـك الخربـات والنواويس حول الكورة ، فلـم يـزل ذلـك دأبـي ، وطلبـت أصـحاب صـدق يعينوني على ذلك فعز عليَّ ، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات .

ولقـد ذكـر الغزالي فـي منقذه أنـه كـان فـي أثناء خلواته تنكشف له أمور لا يمكـن إحصـاؤها واستقصـاؤها ، وذكـر أنـه مـن أول الطريقـة تبتـدئ المكاشـفات والمشـاهدات ، حتـى إنهـم في يقظـتهم يشـاهدون الملائكـة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصـواتًا ، ويقتبسـون مـنهم فوائـد ، ويـذكر الحكيم في مواضع مـن رسـائله أن ذلـك إنمـا هـو بمثابـة محـلات للراحـة يستجم فيها السالك ، ويستروح من شدة ما يعانيه ، ويتزود لاستئناف سيره .

ومن ذلك ما قد قصه الترمذي علينا من الرؤى ، فقد قـص علينـا رؤيـيين اثنتين رآهما بنفسه ـ فيما يرى النائم ـ وما عدا ذلك من الـرؤى الـتي قصـها علينا فقد رأتها له زوجه ، أو رآها لـه آخـرون ، وهـو يـذكر هـذه الـرؤى ، ويعول عليها جميعًا بنفس الدرجة التي يعول بها علـى رؤاه الشخصـية ، أمـا الرؤيين اللتين رآهما بنفسه فقد لاحظنا أن إحداهما تشـير إلى درجـة صـلته بالرسول ﷺ ، وأن التالية تشير إلى علاقته بربه .

ويحسن بنا أن نوردهما بنصه هو ، وهما من الوضوح بحيث لا يتعلق لنا غرض بالتعليق عليهما أكثر مما ذكرناه .

قال[1] : « فبينا أن على هذه الحال إذ رأيـت فيمـا يـرى النـائم كـأني أرى رسول الله ﷺ دخل المسجد الجامع في كورتنا ، فأدخل علـى أثـره ، فـألزم اقتفاء أثره ، فما زال يمشي حتى دخـل المقصـورة ، وأنـا علـى أثـره ، ومـن القرب منه حتى كأنـ [ى] أكـاد ألتـزق بظهـره ، وأضـع خطـاي علـى ذلـك الموضع الذي يخطو [عليه] ، حتى دخلت المقصورة ، فرقى المنبر ، فرقيـت على أثره ، كلما رقى درجة رقيت على أثره ، حتى إذا اسـتوى علـى أعلاهـا

---

(١) بدء شأن أبي عبد الله ص ١٦-١٧ .

درجة قعد عليها ، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه عند قدميه ، ويميني إلى وجهه ، ووجهي [إلى] الأبواب التي تلي السوق ، وشمالي إلى الناس ، فانتبهت من منامي وأنا على تلك الحال .

« ثم من بعد ذلك بمدة يسيرة ، بينا أن ذات ليلة أصلي فثقلت ، فوضعت رأسي في مصلاي جنب فراشي ، إذ رأيت صحراء عظيمة ، لا أدري أي مكان هو ، فأرى مجلسًا عظيمًا ، وصدرًا مهيئًا لذلك المجلس ، وحجلة مضروبة ، لا أقدر على صفة الثياب وذلك الستر ، فكأنه يقال لي : إنه يذهب بك إلى ربك ، فأدخل تلك الحجب فلا أرى شخصًا ولا صورة ، إلا أنه وقع في قلبي أني لما دخلت وقع عليَّ الفزع في ذلك الحجاب ، فأيقنت في منامي بالوقوف بين يديه ، فما لبثت أن أرى نفسي خارجًا من الحجب بالقرب من باب الحجاب واقفًا وأنا أقول : عفا عني ، وأجد نَفَسي قد سكن من الفزع » .

وإذا لم يكن لنا شأن بمضمون هذه الرؤى وتأويلها فإن أسبابها وآثارها لا شك مما يهمنا ، ذلك أنها علامة ظاهرة على عمق التجربة الروحية وصدق صاحبها ، ومن شأن هذه الرؤى أن تزيد صاحبها ثباتًا وقوة على المضي في الطريق فهي ذات تأثير مزدوج في نفس السالك ، من حيث إنها تترجم له عن الحقيقة ، أو عما يجده في أعماق نفسه بصورة صريحة أو بصورة رمزية ، تبث في نفسه الثقة بما حصل في يده ، أو بما وصل إليه ، وتوحي إليه بما ينبغي أن يبذله من جهد أكبر ، وبالمعالم التي ينبغي له أن يتبعها . ومما لا شك فيه أن هاتين الرؤييين ، بذاتهما ثم بمضمونهما ، كانتا ذواتي تأثير كبير على شيخنا في سلوكه طريقه ، وفي مضيه قدمًا في هذا الطريق ، دون التفات هنا أو ههنا ، فداوم على خطته في رياضة النفس من تجنب الشهوات ، واعتزال الخلق ، والاستغراق في النجوى والدعاء .

ثم انتقل من مرحلة الرؤى إلى مرحلة أعمق وأوثق ، يذكرها الحكيم بقوله : « فانفتح له شيء بعد شيء ، ووجدت في قلبي قوة وانتباهًا »

ولا نعرف تمامًا ما كان هذا الفتح ، ولا ماذا كان مضمونه ، ولكننا نعلم أنه أحس في نفسه بزيادة قوة وزيادة انتباه ، وفي هذه المرحلة من سلوكه وفقه الله إلى بعض الرفقاء ، فكان يجتمع بهم في الليالي يتناظرون ويتذاكرون ، ويدعون ويتضرعون بالأسحار .

ويمكن أن نقول عما عرضناه من سلوكه ومجاهداته إنه وجه واحد من عملية إعداده وتهيئته في هذا الطريق الطويل الشاق ، توجه فيه إلى الله توجهًا كاملاً ، وأصبح بمقتضى هذا الاتجاه مضطرًا إلى أن يهجر - بمحض إدراكه وإرادته - كل نواحي نشاطه السابقة ، وأن يتجه إلى نواح جديدة من النشاط ، ما بطن منها أعظم مما ظهر ، وإذا كان اعتزاله الخلق بمحض إرادته وإدراكه وقد جاء تبعًا لتوجهه الكامل إلى الله ، فقد أراد الله أن يقطع صلته بهم بما لا دخل له فيه ، لتكتمل عملية إعداده وتهيئته ، وهذا هو الوجه الثاني من وجوه هذه العملية ، حتى ييأس منهم ، ولا يعود إلى الالتفات إليهم ، ولا تبقى في نفسه بقية تنغص عليه اتجاهه أو تعطل عليه سيره ، فتكتمل له أسباب العزلة والرياضة النفسية ، من الداخل ومن الخارج ، بإرادته وبالرغم عنه ، بحيث يجد من ظروفه التي تحيط به ما يؤكد رغبته ، ويزيد عزيمته ، ويقوى إرادته فيتضافر الوجهان على تحقيق المقصود من هذه المرحلة من مراحل السلوك والمجاهدة، ثم هو فوق ذلك اختبار لمدى صدقه في اتجاهه، وثباته في طريقه ، وإخلاصه في سلوكه ، فإن الصادقين المخلصين لا يأبهون لما يلاقونه من أنواع الفتن والبلايا ، ولا تصدهم عن سبيلهم ، وهكذا كان ، فقد كثرت القالة في شأنه ، وكثرت عنه الشائعات ، وسلط عليه بعض المنتسبين إلى صفة العلم يؤذونه ويتهمونه بالهوى والبدعة ، ولم يكن لديه فراغ ينفقه في الالتفات إلى ذلك ، بل ظل على حاله ، مستغرقًا في طريقه ، لا يتوقف ولا يهدأ ولا يستريح ، والفتنة تزداد ، والشائعات تنتشر ، ويبدو أن موقفه السلبي منها ، وعدم تصديه للرد عليها ، جعلها تقوى وتعنف ، حتى وصل الأمر إلى والي بلخ ، فأرسل محققًا يبحث له هذا الأمر ، وقد اتهم الحكيم لديه بأنه يتكلم في الحب ، ويفسد الناس ، ويبتدع ،

ويدعي النبوة ، وأقل هذه التهم ـ وهي تهمة الكلام في الحب ، كان كافيًا في «محنة غلام الخليل» التي أشرنا إليها من قبل ، لتبرير أقسى العقوبات ، ولعله بناء على ذلك قد أُخرج إلى بلخ ، أو لعل والي بلخ طلبه إليه ، وهناك كتب عليه قباله أن لا يتكلم في الحب .

وأيًّا ما كانت الأسباب الحقيقية وراء هذه المحنة التي امتحن بها الحكيم ، فإنها كانت قوية عنيفة إلى درجة كبيرة ، ويمكن أن ندرك مدى عنفها وقوتها من وصف الحكيم لها بقوله « كانوا صيروا السلطان والبلاد عليَّ بحال لا أجترئ أن أطلع رأسي» ، ولذلك تركت لديه آثارًا عميقة ، وأعقبته عواقب بالغة ، فقد أسقطت قدره عند الناس ، كما آيسته منهم ، وأحرقت حرارتها بقية رغبته فيهم واعتباره لتقاليدهم وموازينهم ، حتى أصبح أكثر قدرة على تذليل نفسه ، وتمكنًا من قسرها على فعل ما كانت تأبى فعله ، وأداء ما كانت تكره أداءه ، وذلك لسقوط منزلتها عند الخلق ، وهوانها عند الناس ، حتى وجد لذلك ـ مع وسمه بمظاهر الذلة ـ حلاوة تصل إلى قلبه .

ولقد أدرك الحكيم ما تنطوي عليه هذه المحنة من تطهير قلبه ، فاتخذها وسيلة مساعدة له على رياضة نفسه . وقد علق عليها بقوله « وكان ذلك من الله تبارك اسمه سببًا في تطهيري ، فإن الغموم تطهر القلب ..... فتواترت عليَّ الغموم حتى وجدت سبيلاً إلى تذليل نفسي ، فكنت أراودها على أمور قبل ذلك من طريق الذلة ، فتنفر ولا تطاوعني ، مثل ركوب الحمار في السوق ، والمشي حافيًا في الطرق ، و[لبس] الثياب الدون ، وحمل شيء مما يحمل العبيد والفقراء ، فيشتد عليَّ ذلك ، فلما أصابتني هذه المقالة والغموم ذهـ[ـبت] شرة نفسي ، فحملت عليها هذه الأشياء ، فذلت وأطاعت ، حتى وصل إلى قلبي حلاوة تلك الذلة» .

وظلت هذه حاله ، اجتناب كامل للشهوات ، وانغماس كامل في أنواع العبادات ، وخلوة اختيارية ، تعززها عزلة إجبارية عن بقية العالمين ، اللهم إلا فئة قليلة من الإخوان تشاركه في مشربه ، يجتمعون معًا على الذكر ، ويقضون فيه كثيرًا من أوقات الليل .

وخلال هذه الفترة المليئة بالمجاهدات والرياضات كان يمر بكثير من التجارب الروحية العميقة، التي يصعب علينا إدراكها من الخارج كما يصعب على صاحبها وصفها أو إيضاحها، ويقص علينا الحكيم قصة ظاهرة صوفية وقعت له، قد تكون غريبة علينا، ولكنها ليست غريبة على سالكي الطريق، فكثير منهم قد مر بتجارب مماثلة ذكرت لنا أنباؤها[1]، كما فعل الترمذي في قوله: «فبينا أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر في ضيافة لأخ من إخواننا، فلما مضى من الليل ما شاء الله، رجعت إلى المنزل، فانفتح قلبي في الطريق فتحًا لا أقدر أن أصفه، وكأنه وقع في قلبي شيء طابت [له] نفسي والتذت به، وفرحت حتى مررت، فما استقبلني شيء هبته، حتى إن الكلاب ينبحن في وجهي فآنس لنباحهن من لذة وجدت في قلبي، [حتى بدا] له أن السماء بكواكبها وقمرها صارت إلى قرب الأرض، وأنا [فيما] بين ذلك أدعو ربي، ووجدت كأن قلبي انصب فيه شيء، فإذا وجدت تلك الحلاوة التوى وتقبض بطني، والتوى بعضه على بعض من شدة اللذة واعتصر، وانتشرت في صلبي وعروقي تلك الحلاوة، وكان يخيل إليَّ أن قربي من مكان قرب العرش، فما زال ذلك دأبي كل ليلة إلى الصباح، أسهر ولا أجد نومًا، فقوى قلبي على ذلك، وأنا متحير، لا أدري ما هذا، إلا أنني ازددت قوة ونشاطًا فيما كنت فيه».

ويرى بعض الباحثين في هذه الظاهرة أنها تعود في الشق المعنوي منها إلى الإيحاء أو التنويم الذاتي، وفي الشق العضوي منها إلى عرض من أعراض نوع من الهستيريا أو الهلوسة البصرية أو السمعية، خاصة عند اصطحابهما سويًا في ظاهرة واحدة كالتي معنا.

لكن هذه الأعراض التي يستندون إليها لا تساعدهم على رأيهم في كثير من الحالات، فهذه الظاهرة التي بين أيدينا، وهي حالة من حالات

---

(١) انظر اندرهل Underhill في كتاب «التصوف Mysticism» ص ٥٩ P. 59 يتحدث عن الجامي وجلال الدين الرومي.

الوجد أو اللوامع الصوفية ، تدلنا بكل وضوح على أن الترمذي استغرق في حالة النشوة التي صادفته ، ولكنه لم يفقد إدراكه العادي ، فالكلاب ينبحن في وجهه ، وهو يدرك أنها كلاب ، وأنها تنبح ، وأن مثل ذلك يستوحش منه الإنسان ، ولكنه يقرر أنه قد أنس لنبحهن ، لا لحالة مرضية ، أو تأثير نفسي مفتعل قد عرض له ، ولكن لما يعيض به قلبه من اللذة ، وهو يدرك أن الكواكب والقمر والسماء كلها أجرام بعيدة جدًا ، إلا أنه لشدة ما حل في قلبه من هذه اللوامع أحس كأنها دانية قد صارت إلى قرب الأرض ، فالأشياء هي هي لم تتغير في حسه، ولم يتغير وضعها في نفسه ، فلم ينكمش مجاله الشعوري أو يتفكك ، ولم تتسلط عليه الخيالات والأوهام[1] ، ولكن استغراقه في النشوة التي غمرته لم يدع لانفعالاته العادية مجالاً لكي تسيطر عليه ، بل غمرتها أيضًا ، وجعلتها تنتظم في تيار واحد من اللذة والأنس ، فإدراكه العقلي والحسي واضح صحيح ، لا يقع تحت سيطرة الخيال ، ولكن قوة الوارد الروحي لم تتركه يتأثر به التأثر العادي ، لأن روحه ووجدانه متجهان اتجاهًا آخر غير هذا الاتجاه العادي ، ومن تكامل سلوكه أن تكون كل مظاهره متجهة في اتجاه متكامل غير مزدوج أو مفارق .

أما هذه الأعراض العضوية فمن الصعب ـ بعد أن عرفنا ما سبق ـ أن نجعلها أعراضًا لحالة مرضية كالهلوسة البصرية أو السمعية أو الهستيريا ، لأنها ليست مصاحبة لها ، ولأنها لم تعقبه ضعفًا أو انحطاطًا في القوى ، بل على العكس كان يزداد مع تكرارها قوة ونشاطًا ، مع الملابسات التي من شأنها إضعاف القوة البدنية وإنهاكها ، مثل مواصلة السهر ليالي متعددة ومتعاقبة بغير انقطاع ، فمثل هذه الحالة ليست من الحالات المرضية[2] ، بل حالة روحية ، قد تكون أكبر من طاقة البدن وتحمله ، فيشعر لها بشيء من

---

(١) انظر في توجيه هذا النقد ما قاله أبو الفرج الجوزي في تلبيس إبليس ص٢٧٨-٢٧٩.

(٢) انظر في تحليل هذه الظاهرة كتاب التصوف لأندرهل الفصل الثالث .

الثقل والألم ، ولكنها في نفس الوقت تبث من قوتها في قلبه ما يبعث النشاط والحركة في بدنه ، فيتألم البدن ، ويشعر بأعراض مختلفة لهذا الألم ، لكنه يحس لذة وحلاوة تدفع صاحبها إلى الاستزادة منها ، وتمنى دوامها ، وكيف لا ؟ وهو يخيل إليه خلالها أن قربه من مكان قرب العرش ، وهو تعبير رقيق من الترمذي يرمز به إلى شعوره بمدى القرب ، والتذاذه وأنسه بهذا الشعور الغامر .

ولقد قص علينا الترمذي الحكيم أن مثل هذه الظاهرة قد حدث لزوجه وتكرر ، وأورد الآن واحدة منها لندرك مدى التشابه بين ما حدث لهما ، مما لا يحتاج ـ بعد ما ذكرناه ـ إلى شرح أو تفسير .

يقول الحكيم : « فوقع عليها حرص الاستماع إلى الموعظة ، وطلب الحقوق من نفسها ، فأول ما ابتدئ لها من تحقيق رؤياها ، أنها كانت في البستان قاعدة ، وذلك لثلاث بقين من ذي القعدة ، بعدما رأت هذه الرؤيا بنحو من خمسة أيام أو ستة ، إذ وقع على قلبها « يا نور كل شيء وهداه أنت الذي فلق الظلمات نوره» ، قالت : فوجدت كأن شيئًا دخل صدري ، فدار حول قلبي فأحاط به ، وامتلأ الصدر إلى الحلق ، حتى صرت شبه المخنوق من امتلائه ، وله حرارة وحرقات على القلب ، فتزينت الأشياء كلها لي ، فما وقع بصري على أرض ولا سماء وخلق من الخلق ، إلا رأيته بخلاف ما كنت أراه من الزينة والبهجة والحلاوة... » .

وبعد أن بلغ شيخنا هذا المستوى في سلوكه ومجاهداته ، وبعد أن ابتلى بما ابتلى به من المنتحلين لصفة العلم ، وبعد أن وطن نفسه على اجتنابهم واعتزالهم ، مغتبطًا بأحواله وواراداته ، غير ناظر إلا إلى الترقي بنفسه في مدارج الطريق ، وقعت بالبلاد فتنة وانتقاض أمر ، فهرب جميع من كانوا آذوه وشنعوا عليه ، وكأن الله الذي أراد أن يبتليه بهم قد أتم امتحانه فيهم ، وإذا بمشايخ البلد يجتمعون إليه ويلحون عليه في أن يقعد لهم ، وما زالوا به حتى أجابهم ، فظهر أمره ، وانتشر ذكره ، وكثرت تلامذته ، وأقبلت الرياسة والفتن ، بلوى من الله لعبده على حد تعبيره .

على أن هنالك شيئًا هامًا لا يصح إغفاله ، هو ما ذكره من أنه اشتغل في سنة من السنين بفن الفلك ، ويبدو أنه أمعن فيه ، ولم يترك الاشتغال به إلا بناء على رؤيا رؤيت له تدل على أن الاشتغال به ليس من شرطه ولا من مذهبه ، وأنه لا يؤمن أن يكون حجابًا بينه وبين رب العزة .

بعد أن سرنا مع الحكيم هذه لرحلة ، منذ بدايته إلى أن ثبتت أقدامه في الطريق ، وأصبح شيخًا له تلامذته ومريدوه ، لا نستطيع أن نسير بانتظام إلى أبعد من ذلك ، وإنما ندرك شيئًا من اللمحات هنا وهناك من خلال لأحلام والرؤى المذكورة في هذه الترجمة القصيرة تصفه مرة بأنه من الصديقين ، ومرة بأنه وتد من أوتاد الأرض ، ومرة بأنه بدل من الأبدال .

وفاته وقبره :

لقد مارس الحكيم الترمذي تجربة روحية عميقة،يبدو مدى عمقها فيما ترك من آثار باقية خالدة وقد ساعده على ذلك ما وهبه الله من طول العمر ، حيث إنه ولد على ما رجحناه في مقدمة البحث عام خمس ومائتين ، وتوفي عام عشرين وثلاثمائة للهجرة ، ولم تسعفنا المراجع التي اطلعنا عليها بما يعيننا على تحديد تاريخ واحد منها ، ميلاده أو وفاته ، تحديدًا يمكن أن نطمئن إليه اطمئنانًا كاملاً ،لكنها مجرد ترجيحات تعتمد على بعض الشواهد والمقارنات .

وإذا كنا لا نعرف بالضبط ماذا حدث له بعد نفيه من ترمذ،وكيف عاد إليها، ومتى عاد ، فقد نستطيع أن نقول إنه توفي بمدينة ترمذ حيث يوجد قبره ، وقد وصف بارتولد Barthold هذا القبر في دائرة المعارف الإسلامية ، تحت مادة ترمذ ، بقوله : إن قبره الذي ربما تم تشييده في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) هو الآن من أفخم الأبنية بين أطلال مدينة ترمذ ، بل هو من أجملها في أوسط آسيا .

ويروي أربري والدكتور علي حسن عبد القادر عن بارتولد في كتابه « تركستان إلى الغزو المنغولي» قوله : ونجد بين الأبنية في خرائب المدينة

القديمة ضريح الولي أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي ، وهذا الضريح من المرمر الأبيض ، وقد ذكر بوسلافسكي أن هذا الأثر لا يفوقه من حيث الصنعة والمادة أي أثر آخر من الآثار القديمة التي عرفت حتى الآن في هذه النواحي . ولم يقم هذا الضريح معاصرو الترمذي ، ولا يمكن أيضًا أن يكون بناؤه قد حدث قبل القرن السابع عشر الميلادي ، بدليل الخط العربي النسخي الذي كتب على هذا القبر ، وهو خط هذا العصر[1].

مكانته :

إذا كانت كتب التراجم لم تؤد إلينا ترجمة شافية للحكيم الترمذي ، فإنها لم تبخل عليه ببعض ما هو أهله من عبارات الثناء والتقدير ، وأضافت إليه ألقابًا تنم عن مدى هذا الإجلال[2] ، ولقد ذكره السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ بأنه من كبار مشايخ خراسان ، وله التصانيف المشهورة ، وأنه كتب الحديث الكثير ورواه[3] ، وذكره أبو نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ بأنه مستقيم الطريقة ، تابع للآثار ، يرد على المرجئة وغيرها من المخالفين[4] ، وذكره القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ بأنه من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم[5]، ومن قبل ذلك ذكره الكلاباذي المتوفي سنة ٣٨٠ هـ في كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف» بين من صنف فى المعاملات[6].

على أن التقدير الحقيقي لمكانة الحكيم لا تعرف من كتب التراجم بقدر ما تعرف من أثره على من جاء بعده من الصوفية وغيرهم ، يقول الدكتور نقولاهير في مقدمته لكتاب «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب»[7]: فإن كثرة استنساخ كتبه حتى إلى عهد قريب تقوم شاهدًا على

---

(١) مقدمتهما لكتاب الرياضة وأدب النفس ص ١١ .

(٢) وقد ذكرنا بعض هذه الألقاب تحت عنوان «ألقابه» في الفصل الأول .

(٣) طبقات الصوفية ص ٢١٧ .

(٤) حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٣٣ .

(٥) الرسالة ص ٢٤ .

(٦) ص ٣٢ .

(٧) ص ١٢ .

ما لقيته عند الناس من استحسان ورواج ، ويقول الدكتور عثمان يحيى في مقدمته لكتاب «ختم الأولياء»[1] : وإن بقاء أكثر مؤلفات الشيخ الترمذي في دور المكاتب إن في الشرق أو الغرب لدليل بارز على عناية العلماء البالغة بها ، وشيوعها في الأوساط الإسلامية المختلفة .

ويتفق كل من الدكتور نقولاهير والدكتور عثمان يحيى على أن ابن عربي قد استفاد من مؤلفاته كثيرًا ، وأنه عقد فصلاً طويلاً في كتابه «الفتوحات المكية» للإجابة على أسئلة الحكيم الترمذي التي أوردها في كتابه «ختم الأولياء» ، بل أفرد لذلك كتابًا مستقلاً سماه «الجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذي الحكيم»[2]. وعلى أن الغزالي قد اقتبس من كتاب «الأكياس والمغترين» في آخر الربع الثالث من «إحياء علوم الدين» عند كلامه على ذم الغرور ، وأن ابن القيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ ينقل فقرًا من «كتاب الفروق في كتابه «الروح» ، وقد اطلعت على هذا الكتاب ، وقارنت هذه «الفقرات» فوجدته ينقل في الحقيقة فصولاً كثيرة يتصرف فيها حسب اجتهاده ، ويعلق عليها أهمية كبيرة ، دون أن يشير إلى صاحب الفكرة الأساسية في إيراد هذه الفروق ، ولكنه يروي ـ في خلال الكتاب نفسه ـ عن الحكيم الترمذي بعض أقواله وآرائه[3].

وإذا كنا لا نعرف مراحل الرحلة الطويلة التي قطعتها كتبه حتى وصلت إلينا ، ومدى تغلغلها وتأثيرها ، فإنه قد أصبح من المؤكد أنها تعتبر من أمهات الكتب الصوفية التي يرجع إليها ويعتمد عليها ، ويصف أبو الفرج

---

(١) ص ٣٨ .

(٢) وقد نشر الدكتور عثمان يحيى هذه الأجوبة بجوار الأسئلة في حاشية نفس الكتاب المذكور «ختم الأولياء» .

(٣) انظر مثلاً أول فصل في المسألة الثانية عشر ص ١٠٨ ، وهي في البحث عن اختصاص هذه الأمة بفتنة القبر .

ابن الجوزي أحد كتبه بقوله : «وقد صنف لهم [للصوفية] أبو عبد الله محمد ابن علي الترمذي كتابًا سماه رياضة النفوس قال فيه ...» [1].

كما أصبح من المؤكد أن كتب الترمذي كانت تحظى بتقدير عميق في المدرسة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، والتي لا تزال حية إلى الآن ، فقد كان الشاذلي يعقد ميعادًا لدراسة كتابه «ختم الأولياء» وقد بلغ من اهتمام شيوخ هذه المدرسة بهذه الدروس أن كان أبو العباس المرسي يحرص كل الحرص على حضورها ، وحينما يكون على سفر فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها في ميعادها[2] ، كما كان ابن عطاء الله السكندري يروى عنه في تآليفه التي تعتبر أساسًا في كتب المدرسة الشاذلية[3] ، وقد بلغ من تقديره في هذه المدرسة أنهم كانوا يطلقون عليه لقب الإمام الرباني ، وقد روى ابن عطاء في كتابه «لطائف المنن» عن شيخه أبي العباس المرسي فقال[4] : وكان [أبو العباس المرسي] يقول عن الشيخ أبي الحسن : عليكم بالقوت فإنه قوت ، وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي ، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة ، وكان يقول عنه : إنه أحد الأربعة الأوتاد .

فليس الحكيم الترمذي مجهول المكان عند أهل التصوف ، وإن ظل فترة غامض الأثر لدى الباحثين ، حتى اتجهت أنظارهم إليه ، وبدأ كثير منهم في التنقيب عن كتبه وآثاره ، والعمل على توضيح دوره في ميدان التصوف ،

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ص ٦٨ ، والدكتور عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلي ص ٥٢ .

(٣) انظر مثلاً كتابه «لطائف المنن» ، وكتاب «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح» .

(٤) ص ٦٢ .

حيث إنه لا يقل أهمية عن أعلام التصوف وأقطابه المعدودين وقد أشار إلى ذلك أربري Arberry في كتابه «التصوف Sufism» حيث قال[1] : إن القـرن الذي أبرز المحاسبي والجنيد والحلاج قد قدم للتصوف الإسلامي من أسهموا في بناء صرحه ممن ليسوا أقل أهمية إلا بوجه من المقارنة ، وليس الحكـيم أقل أهمية من هؤلاء .

* * *

(١) ص ٦٠ - ٦١ P.P. 60,61 .

obeikandl.com